السودان

النهضة الأفريقية: نحو سودان جديد

بقلم فرانسيس دينغ

لماذا نشبت الحرب؟ وهل تناولت اتفاقية السلام الشامل أسبابها؟ وما هي الاحتمالات المستقبلية أمام الجنوب بعد الوفاة الدرامية لجون قرنق؟

السودان بلد تشوهت هويته بسبب الخلافات ولكنه يسعى جاهدا الآن ليعيد اكتشاف ذاته ولو كان ذلك بأسلوب عنيف ومأساوي، والجيد هنا أن البحث البناء عن إطار الهوية الذي يمكن للسودانيين أن يلتفوا حوله ربما يكون في المتناول.

وكما هو الحال في معظم الدول الأفريقية وليس كلها، فقد عمدت القوى المستعمرة إلى الجمع بين الجماعات القومية المميزة والمنفصلة والعدوانية تجاه بعضها البعض في بعض الحالات. فالأناس المتنازعون الآن هم نتيجة الإرث التاريخي الذي ميزه شكل من العبودية التي صنفت الجماعات إلى أعراق سامية من السادة وأناس مستعبدين وتابعين. ويقطن الشمال، ويشكل ثلثي مساحة البلاد والتعداد السكاني، جماعات عرقية وأكثرها هيمنة هي الجماعة التي تزاوجت من المهاجرين الذكور والتجار من العرب وعلى مر القرون نتج عنهم جماعة عرقية عربية أفريقية تشبه الأفريقيين المتواجدين جنوبي الصحراء، وبالطبع تشير العبارة العربية بلاد السودان (أرض السود) إلى كل المناطق المحيطة بالصحراء. وحالت المسافة والعوائق البيئية والمناخ المداري القاسي ومقاومة القبائل النيلية المقاتلة دون هجرة العرب والاستقرار في جنوب السودان، وأولئك العرب الذين غامروا واتجهوا إلى الجنوب كانوا في الأساس تجار عبيد وتدفعهم التجارة وليس اهتمامهم بتعريب الجنوب ونشر الإسلام فيه.

وبما أن البريطانيين قد كانوا هم الشريك المهيمن في الحكم الإنجليزي المصري المشترك، فقد قاموا بإنهاء العبودية وحكموا البلاد كمستعمرتين منفصلتين، وعملوا على تنمية الشمال كمجتمع عربي مسلم وقاموا بتلفيق هوية أفريقية الأصل في الجنوب. تأثرت هذه الهوية بالغرب من خلال البعثات الدينية المسيحية ومن ناحية أخرى عارضت أي تنمية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية. وإلى أن تغيرت السياسة الاستعمارية جذريا في عام ١٩٤٧ بدا أن البريطانيين قد بيتوا النية لإعداد الجنوب للاستقلال كدولة منفصلة.

لقد بدأ الشمال بحركة الاستقلال وانتصر بمساعدة مصر وقدم الجنوب المساعدة على مضض وأشترط على تطبيق الفدرالية تقديم الضمانات للمنطقة كشروط للمصادقة على الاستقلال. واختار الجنوب الاستقلال على أساس توكيد الشمال على أن "يهتم بجدية" بشؤونه. ولكن سرعان ما نكث الشمال بوعوده لأهل الجنوب وحل محل الاستعمار البريطاني. وكمستعمر داخلي سعت حكومات الشمال إلى فرض عمليات تعريب الجنوب وتحويله إلى الإسلام على أساس تحقيق سودان موحد ومتجانس.

بدأت معارضة الجنوب للهيمنة العربية الوشيكة في شهر أغسطس عام ١٩٥٥، أي قبل ستة أشهر من الاستقلال عندما تمردت كتيبة من الجنود الجنوبيين في بلدة توريت وفر الجنود بأسلحتهم. وتصعد احتجاجهم وتحول إلى ثورة أفضت إلى الحرب الأهلية التي احتدمت بشكل متقطع على مدار أكثر من نصف قرن.

استمر النزاع الأول الذي كان هدفه الانفصال حتى عام ١٩٧٢ وانتهى بتسوية منحت الجنوب حكما ذاتيا إقليميا ونتج عنها عقد من السلام المتقلقل، وهي اتفاقية أديس أبابا. وأدى الإلغاء الأحادي الجانب لهذه المعاهدة من قبل الحكومة بقيادة جعفر النميري، وهو الرجل العسكري القوي الذي ساعد على نجاح هذه الاتفاقية في المقام الأول، إلى استئناف الأعمال العدائية في عام ١٩٨٣. وكان تبني النميري للحركة الإسلامية وإعادة رسم الحدود بين الشمال والجنوب لدمج حقول البترول الجنوبية وخطط إعمار قناة جونغلي الضخمة لتحويل مياه السد (أكبر سهول النيل الأبيض) وتحويل مياهه تجاه الشمال لأغراض الري قد أثار سخط أهالي الجنوب.

رؤية قرنق

أسس الدكتور جون قرنق دي مابيور حركة تحرير السودان في عام ١٩٨٣ والتي اتخذت الجنوب مركزا لهما، وكان الهدف المعلن للجيش والحركة ليس هو الانفصال ولكن إنشاء سودان جديد بهيكلة جديدة بدون تمييز للجنس أو العرق أو الثقافة أو الدين أو النوع.

لم تُفهم رؤية قرنق للسودان الجديد في البداية ولم تلقى تأييدا من الشمال والجنوب وحتى داخل حركته. فبالنسبة لأهالي الجنوب الذين فضلوا الانفصال كليا، كانت رؤيته لا تتطابق وطموحاتهم وكانت خيالية في كل الأحوال حيث أن الشمال لن يسمح بتنفيذها أبدا. وبالنسبة للشمال كانت الرؤية متغطرسة وساذجة في أفضل الأحوال. واعتبرها المقاتلون والمقاتلات في الجنوب أنها خدعة بارعة لتهدئة مخاوف من يعارض الانفصال في السودان والمجتمع الدولي ومنظمة الاتحاد الأفريقي (المعروفة لاحقا بالاتحاد الأفريقي). وانعكس موقفهم بقولهم الشائع بينهم، "لماذا نحارب، نحن نعرف"، وبينما كان قرنق يتحدث بلغة السودان الموحد، فقد كانوا يقاتلون بهدف الانفصال.

وطبقا لفلسفة قرنق كانت القناعة بأن انفصال الشمال العربي المسلم عن الجنوب الأفريقي هو من وحي الخيال الجامح. وبينما تم تصنيف الشمال على أنه عربي، فحتى أولئك الذين يستطيعون أن ينسبوا أنفسهم إلى الأصول العربية هم هجين من الأعراق العربية والأفريقية وحتى ثقافتهم هي عبارة عن مزيج أفريقي عربي. وأجزاء كبيرة من البلاد في مناطق النوبة وانغاسانا أو الفنج التي تحد الجنوب هي أفريقية كأي جزء أفريقي يمتد في القارة. والبجا المتواجدون في الجزء الشرقي من البلاد هم سودانيون الأصل أيضا. والفر والعديد من الجماعات العرقية الأخرى في دارفور وحتى أقصى الغرب هم أفريقيين سود. وفي معظم الحالات، فإن تلك الجيوب غير العربية في الشمال كانت مهمشة بنفس القدر مثل أهل الجنوب رغم أنهم موالين للإسلام الأفريقي. لذلك وعدت رؤية السودان الجديد بتحرير كل أولئك الناس وبإنشاء دولة ذات تعددية ومساواة حقيقية وبنفوذ أكبر للجماعات الأفريقية التي كانت مهمشة في السابق.

وبمرور الوقت قامت الطريقة البناءة لقرنق بتحييد من عارض الانفصال في الشمال وأفريقيا والعالم وحشدت الدعم لتحقيق العدالة في سودان جديد بهيكلية جديدة. وأخذ تحدي قرنق للدولة ككل في الازدياد بمطامحه في أن تصبح البلاد غنية بتنوعها العرقي والجنسي والديني والثقافي، فضلا عن أن تسلبها الفتن نتيجة لهذا التنوع. وبدأ هذا الحلم يروق للجماعات غير العربية التي صُنِّفت تحت كنف المظلة العربية الإسلامية وحتى بالنسبة للبراليين الشماليين حيث بدأ الكثيرون

في التشكيك في هويتهم "العربية" المزعومة. وبدأت "نهضة" الهوية القومية في تحدي المؤسسة العربية الإسلامية المهيمنة، وكانت ردة الفعل تجاه تأسيسها خلال فترة التسعينيات هي تبني وقفة هجومية راديكالية أفضت إلى تأجيج الحركة الأصولية الإسلامية وأدت إلى تدهور حاد في علاقات السودان مع المجتمع الدولي، وكان الإسلام، فضلا عن العرق أو الثقافة العربي، هو سلاحهم لتعبئة أغلبية أهل الشمال.

اتفاقية السلام الشامل وأديس أبابا

لقد منحت اتفاقية أديس أبابا جزءا من البلاد لأهل الجنوب لكي يمارسوا فيه قدرا محدودا من الحكم الذاتي بينما تركت القضايا القومية والدولية الرئيسية ليحددها الوسط. ولم تقدم الاتفاقية قاعدة مالية للجنوب وظل الوزراء الجنوبيين معتمدين على النوايا الحسنة لحكومة الوسط والرئيس النميري لتحصيل العائدات.

ولكن تكمن أهمية الاتفاقية في اعترافها المؤقت للتنوع العرقي والثقافي والديني للسودان بينما تفتح قنوات تفاعل ونفوذ مشترك سيسمح بتطوير وحدة قومية متكاملة بمرور الوقت. ولن تشدد تلك الهوية على عناصر الخلاف بعد الآن ولكنها ستركز على الأشياء المشتركة، ولو لم يكن معترف بها، كأساس للتحديد المشترك للذات كسودانيين. وقد كانت اتفاقية أديس أبابا إنجازا كبيرا ولكنها كانت مرحلة عمل يجري إنجازه، وكان موطن ضعفها الرئيسي هو العلاقة غير المتناسقة بين الشمال والجنوب والتي كان من شأنها تبسيط عملية استيعاب الشمال تدريجيا للجنوب فضلا عن تبسيط التكامل المنصف الذي كان من شأنه جعل التنوع مصدرا للثراء.

وقعت الحكومة السودانية وحركة تحرير السودان اتفاقية السلام الشامل في يوم ٩ يناير ٢٠٠٥، وحققت الاتفاقية السلام بين الشمال والجنوب والمناطق المجاورة كجبال النوبة والنيل الأزرق الجنوبي. وتمنح اتفاقية السلام الشامل للجنوب الحق في الانسحاب من خلال مذكرة تُقدم بعد الفترة الانتقالية ذات الستة سنوات وتنص على وجوب تحقيق خيار الوحدة كخيار جذاب خلال الفترة الانتقالية. والأهم من ذلك هو أن اتفاقية السلام الشامل تضمن وجود علاقة أكثر تناسق أو إنصاف بين الشمال والجنوب بشكل أكبر مما كانت في السابق في ظل اتفاقية أديس أبابا.

والآن توجد حكومة خاصة بالجنوب، وحكومة جنوب السودان مستقلة كليا عن تدخل الشمال ولها جيشها وقاعدة موارد خاصة بها وتتمتع بوصول لعائدات النفط وتسيطر على فرعها الخاص من البنك الوطني والذي يتقيد بمبادئ التعامل البنكي التقليدية فضلا عن المبادئ الإسلامية كما هو حال نظيره في الشمال. يجب أن يكون للسودان سياسة خارجية قومية تسمح للجنوب بتطوير العلاقات الثنائية المشتركة مع شركاء التنمية والتجارة الدوليين. وفي حكومة الوحدة الوطنية التي أعلن عنها في شهر سبتمبر ٢٠٠٥، يوجد لحركة تحرير السودان والممثلين الجنوبيين الآخرين نفوذ وزاري ضمن ترتيب معين أعلن عنه في اتفاقية السلام الشامل ويعطي الحزب الوطني الحاكم نسبة ٥٢ بالمائة من المقاعد ونسبة ٢٨ بالمائة لحركة تحرير السودان ونسبة ١٤ بالمائة للأحزاب الشمالية الأخرى ونسبة ٦ بالمائة للأحزاب الجنوبية الأخرى. ومن أجل الحفاظ على الحصص النسبية المتفق عليها وإظهار التوازن العرقي للسودان، سيتم تمثيل العديد من الوزراء بوزير ووزير دولة.

وتعرض هذا الإطار المعقد للخطر جراء الوفاة المفاجئة لقرنق في حادث تحطم مروحية في ٣٠ يوليو ٢٠٠٥. فقد تولى قيادة حركة تحرير السودان لمدة ٢٢ عاما وكان هو وأول نائب رئيس، علي عثمان محمد طه، ذوا شأن كبير في المفاوضات التي أفضت إلى اتفاقية السلام الشامل. وقد أقسم اليمين كأول نائب رئيس ورئيس جنوب السودان قبل ثلاثة أسابيع فقط من وفاته التي أدت إلى زعزعة السودان وأوقعت الحزن والأسى الشديدين في الملايين من أهالي الجنوب الذين اعتبروه المخلّص.

وتصرفت حركة تحرير السودان بسرعة بانتخاب نائب قرنق، سالفا كير مايارديت،

جون قرنق رئيس جيش تحرير السودان ونائب الرئيس السوداني على عصمان طه أثناء محادثات السلام في كينيا.

السودان

مرآة السودان

ليخلفه كرئيس للحركة وقائدا أعلى لجيش تحرير السودان ورئيسا لحكومة جنوب السودان. ووفقا لاتفاقية السلام الشامل قام الرئيس عمر حسن البشير بالمصادقة على سلفا كير كنائب أول لرئيس الجمهورية. وبينما التزم القادة في الشمال والجنوب بمتابعة رؤية قرنق للسودان الجديد، يخشى الكثيرون أن وفاة قرنق قد خلفت فراغ. لقد حرمت السودان من رجل متزن ويخاطب الأزمـات التي لا تعد ولا تحصى للبلاد ويجلب المهارات للشرق ودارفور لتبسيط عملية السلام والمصالحة التي أظهرها في موطنه في الجنوب.

وبينما تأتي اتفاقية السلام هذه بين الأطراف المتضادة لهذا البلد المنقسم بشدة، فالكل ينظر إلى إمكانية استمرار هذا السلام الضروري جدا. وما زالت الكثير من المناطق في البلاد متأهبة عسكريا ضد الوسط العربي، وأولهم دارفور في الغرب ومنطقة بجا في الشرق. وبالرغم من أنها مسلمة ومعربة بدرجات مختلفة، إلا أنهم يرون أنفسهم الآن من غير العرب ومهمشين ومميزين عرقيا. وبينما لازالت الجماعات المهمشة في كردفان، وبما فيها أولئك الذين يطلق عليهم لقب "العرب" رغم أنهم يظهرون مزايا وخصائص ثقافية أفريقية، تنتمي للوسط العربي، إلا أنه توجد هناك أصوات مختلفة في الرأي تشكوا من تهميشهم. وحتى النوبيين في الشمال، والذين أصبحت أجيالهم الحديثة قريبة من مصر والعالم العربي، يعيدون الحياة لفخرهم بحضارتهم النوبية القديمة ويتنصلون من نعت العروبة.

السودان المتزن في فترة حاسمة

تأمل القوى التي تؤيد الوحدة في السودان، وفي المنطقة والمجتمع الدولي، أن تصبح الوحدة عنصرا جذابا للجنوب خلال الفترة الانتقالية. وبينما تتحدى المحيطات غير العربية الوضع الحالي، فإن الدولة مدعوة لتحول ذاتها وأن تبدأ في بناء إطار حصري للهوية القومية يجد فيها كل السودانيين حس من الانتماء مواطنين متساويين. ويكون الخيار المتاح أمام الوسط العربي هو القيام بدور إيجابي في إعادة الإعمار المتساوية للبلاد. وبما أن النزاعات على الهوية ذات طبيعة إبادة جماعية، ستكون هناك حاجة لوجود المجتمع الدولي ليس فقط ليملئ فراغ المسئولية الوطنية وتقديم المساعدات الإنسانية وحماية المدنيين ولكن لرفع قضية السلام الشامل والعادل أيضا، وهو الوسيلة المعقولة والحيوية لمنع وقوع الإبادات الجماعية.

ولم يكن ملايين الناس الذين هتفوا لقرنق إبان عودته المنتصرة إلى الخرطوم لقسم يمين نائب أول للرئيس من أهالي جنوب السودان فقط ولكنهم كانوا من جميع أنحاء البلاد. لقد سلبت رؤية قرنق على خيال الأمة وأصبحت نجاح مذهل. وحتى أعدائه تماشوا مع موجات التغيير على مضض.

لقد رفع قرنق الجنوب والسودان ككل إلى قمم لم يتخيلها أحد في السابق قط. فهل سيسمح أولئك من يخلفونه في المسئولية، الشماليين والجنوبيين، بسقوط الدولة عن تلك القمم؟ أم أنهم سيتحدون ويشتركون مع من عارضوا قرنق لمتابعة رؤيته التي ستعطي كل ذي حق حقه، سواء كانت أولوياتهم هي تقسيم أو وحدة البلاد؟ وفي غضون ستة سنوات يحق لأهل الجنوب تقرير إذا ما كانوا سينسحبوا أو يظلوا في السودان الموحد. لقد منح الشمال وأصدقاء السودان الدوليين فرصة تاريخية لجعل فكرة الوحدة فكرة جذابة للجنوب.

فرانسيس مادنغ دينغ هو أستاذ أبحاث في العلوم السياسية الدولية، والقانون والمجتمع في جامعة جون هوبكنز في واشنطن العاصمة، وهو وزير دولة سابق للشئون الخارجية في السودان والسفير السوداني في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الاسكندينافية وكندا. وقد كان ممثل الأمين العام للأمم المتحدة للنازحين الداخليين ما بين ١٩٩٢-٢٠٠٤. البريد الالكتروني: fdeng1@jhu.edu